المرافعة الثانية (المدنيّة الرأسمالية)

الفصل الثالث

1- المقدّمة :

تناول القائد والفيلسوف عبدالله أوجلان ، في الفصل الثالث من (المدنيّة الرأسماليّة) ، مواضيع عدة ، حيث فسّر تصوراته وانطباعاته الطفوليّة ، انطلاقاً من القول الشعبي المأثور : (خذ الخبر اليقين من فم الأطفال) ، وكيف تحوّلت تلك التصوّرات إلى حقائق مع مرور السنين ، كما تناول جمهورية تركيا كإحدى أولى أمثلة الحداثة الرأسماليّة المتحوّلة والمتطوّرة إلى دولة قوميّة في البلدان شبه المستعمَرة ، وقد أوضح أيضاً ، تفسير كارل ماركس(فيلسوف وناقد للاقتصاد السياسي ومؤرّخ وعالم اجتماع ومنظّر سياسي وصحفي وثوري اشتراكي ألماني) ، وفريدريك أنجلز (كاتب ومنظّر سياسي وفيلسوف ألماني ، ويُعتبر أبو النظريّة الماركسيّة بالإضافة إلى ماركس نفسه) ل (الاشتراكيّة العلميّة) ، اعتماداً على الاقتصاد السياسي الإنكليزي والفلسفة الألمانيّة والاشتراكيّة الفرنسيّة ، وقد أسهب في الحديث عن التأثير الهائل للاحتكار الرأسمالي على الثورة الفكريّة المتناميّة في أوروبا ، اعتباراً من القرن السادس عشر ، وعن المساهمات التي قدّمتها أوروبا على صعيد المدينة والدولة والطبقة ، وما إلى ذلك من الأصعدة ، منتقلاً إلى الحديث عن الأثر البالغ الذي أحدثته أيديولوجيا التنوير ، وكيف أنّ الرأسماليّة هي شكل من أشكال السلطة ، وليست شكلاً اقتصاديّاً ، مسهباً في الحديث عن العناصر التي أوجدت الاقتصاد المثمر في النظام الرأسمالي ، وعن المجموعات التي أدارت العجلة الاقتصاديّة عبر التاريخ ، مبرهناً أنّ الرأسماليّة ليست اقتصاداً ، بل هي ضد الاقتصاد ، اعتماداً على تسع معطيات ، وسارداً ـ بالخطوط العريضة ـ موضع الرأسماليّة (هذا النظام اللااقتصادي والبارز بتضاده مع الاقتصاد) من الواقع الاجتماعي والحضاري ، انطلاقاً من العصر المشاعي البدائي ، ومروراً بالعصر النيوليتي ، وعصر المدنيّة السومريّة ، وعصر المدنيّتين البابليّة والآشوريّة ، والمدنيّات المصريّة والهنديّة والصينيّة والحثيّة والفينيقيّة ، والعصر الميدي ـ البرسي ، والثقافة والحضارة الإغريقيّة ـ الرومانيّة ، وانتهاءً بالحضارة المسيحيّة والإسلاميّة ، ليختتم الفصل ببنود رئيسيّة عن وضع أوروبا في مرحلة ولادة الرأسماليّة .

2- تفسير التصوّرات والانطباعات الطفوليّة :

1")- التصوّر الأول :*- نجح في التسلل إلى الصفوف الأماميّة لعقد الصلاة خلف الإمام (مسلم) مباشرةً ، من خلال حفظه السريع للآيات القرآنيّة ولعدة أدعية ، حيث قال عنه الإمام : (إذا استمرّ عبدالله بهذه الوتيرة فسوف يطير) ، هذا يعني أنه قام ببداية صحيحة ، إلا أنّه نجح في تحطيم تأثيرات الدين الملقّن في القرية بعد سنوات طويلة ، ولا سيما بعدما قام من حفظه في مدرسة مذهب الاشتراكيّة المشيّدة .

*- فسّر شعور الخوف والقلق الذي انتابه قبل دخوله المدرسة ، وسؤاله وهو يحتضن جذع شجرة زيتون : كيف هي المدرسة والمعلّم ؟ ونقاشه لهذا السؤال مع الطفل عزيز الذي أصبح زميلاً له في المرحلة الابتدائيّة ، فاسم المدرسة كان يشكّل في مخيلته الطفوليّة ، صورة أقرب إلى الوحش ، ولم يكن مخطئاً في هذا الشعور ، لأنّ المدرسة كانت المكان الذي يتمّ فيه تلقين الإله الجديد ، ألا وهو الدولة القوميّة ، فحسب هيغل (أحد أهم الفلاسفة الألمان ، حيث يُعتبر أهم مؤسسي المثاليّة الألمانيّة في الفلسفة) : (إنّ الإله الجديد قد هبط على الأرض في هيئة الدولة القوميّة ، وبدأ بالمسير على الأرض في هيئة نابليون) ، مفسّراً ذلك في شروع المعلمين - الكهنة بتلقين ذلك للأطفال منذ المرحلة الابتدائيّة .

2")- التصوّر الثاني : شاحنة السائق (حيدر) المنحدر من قرية (آرغل) ، وهي تشعّ بأنوار مصابيحها المنعكسة على عينيه الناعستين مع بزوغ الفجر ، وهو ينتظر على مصطبة حراسة الكروم ، بدت في مخيلته الطفوليّة أشبه بشبه إله .

وعندما شرح الصناعويّة على أنّها أقوى اللوياثان (الوحش) الجديد ، أو أنّها إحدى صفاته الأساسيّة ، فقد أيقن حينها أنّه أخذ الخبر اليقين من خيالاته الطفوليّة .

3")- التصوّر الثالث : أنوار أجهزة المسلاط (الأضواء الكاشفة) التي كانت تنير الحدود التركيّة - السوريّة ، والتي تبعد عنها قريته حوالي خمسين كيلومتراً ، كانت تنعكس على عينيه كبريق صاعقةٍ ، فتتشكل في باله صورةٌ عن خليط الدولة- الإله .

<u>3- تركيا أولى أمثلة الحداثة الرأسماليّة المتحوّلة إلى دولة قوميّة :</u>

جمهورية تركيا هي إحدى أولى أمثلة الحداثة الرأسماليّة المتحوّلة والمتطوّرة إلى دولة قوميّة في البلدان شبه المستعمَرة ؛ فهي تحمل آثار جمهورية فرنسا أثناء تأسيسها ، حيث تداخلت الديمقراطيّة والدولة لديها في البداية ، على غرار جمهورية فرنسا ، تماماً مثلما حصل في الجمهوريّة الإيرانيّة الإسلاميّة ، وجمهورية المدينة المنوّرة الإسلاميّة الأولى ، بل كما هي الحال في بدايات اتحاد الجمهوريات السوفيتيّة الاشتراكيّة ، فمع تشذيب (تهذيب) وتقليم العناصر الديمقراطيّة مع

الزمن ، تمّ تحويل تلك الجمهوريّات إلى دولة قوميّة مسّطحة ، بصفتها شكلاً من أشكال السلطة الرأسماليّة .

4- تفسير ماركس وأنجلز ل الاشتراكيّة العلميّة :

عندما يفسّر كل من كارل ماركس ، وفريدريك أنجلز (الاشتراكيّة العلميّة) ، أي علم الاجتماع الخاص بهما ، يقولان : (إنّهما كوّنا تركيبةً جديدةً من الاقتصاد السياسي الإنكليزي ، والفلسفة الألمانيّة ، والاشتراكيّة الفرنسيّة) ، حيث يجهد أخصائيّو الاقتصاد السياسي الإنكليز للبرهنة على أنّ ما يحدث ، هو نجاح ظافر للاقتصاد الجديد ، أو للإقناع بأنّه الدين الجديد ، بينما الفلاسفة الألمان ، فإنّهم يعملون على القول بأنّ العامل الرئيسي الذي يجب الأخذ به أساساً هو الدولة القوميّة (الشكل الجديد للملك ـ الإله) ، في حين يواظب الاشتراكيّون الفرنسيّون أساساً على التنظير باسم المجتمع قاطبةً ، بقولهم أنّ كل السرود الدينيّة قد انحسرت ليتحقق نجاح المجتمع العلماني الوضعي ، فبذلك قد عملت هذه المدارس الثلاث على صياغة التحليلات النظريّة للحداثة الساعية إلى التحكّم بمسار حياة أوروبا بأكملها .

5- تأثير الاحتكار الرأسمالي على الثورة الفكريّة في أوروبا في القرن السادس عشر:

يكمن التأثير الهائل للاحتكار الرأسمالي ، الذي قلب كلّ شيء رأساً على عقب ، في أساس الثورة الفكريّة المتنامية في أوروبا ، اعتباراً من القرن السادس عشر ، ومن الضروري وضع بعض الأمثلة التاريخيّة نصب العينين ، لدى العمل على تعريف هذه الثورة الفكريّة ، والمثال الأول يتعلّق بتكوّن دولة الكهنة السومريين في رحم المعبد ، فمع بزوغ الثورة الفكريّة ، قُيّمَت ظروف تنظيم نموذج الدولة اعتماداً على فائض الإنتاج ، وبالاعتماد على تنظيم الدولة ، وإنشاء الآلهة الجديدة كأول مثال لجميع أديان المدنيّة ، فلأول مرة تنتظم الدولة في هيئة الكاهن ـ الملك ، ولأول مرة يُنظّم الاقتصاد بالتداخل مع الدولة وكاشتراكية الدولة ، لينضوي تحت المراقبة .

وتأتي حضارة الهوريين ، لتشكّل النسخة الثانية من الحضارة السومريّة ، وكذلك حضارة الحثيين المتداخلين معهم ، والنابعة من ميزوبوتاميا العليا ، ويكمن فَرق الإغريق في تخطّيهم الأقاويل الميثولوجيّة الكلاسيكيّة وإنشائهم الطراز الفلسفي ، ليكون النموذج الأيوني ـ الإغريقي النسخة الثالثة من الحضارة السومريّة .

في حين يمكن تعريف العبريين ، بأنّهم أول قبيلة انتقلت من الميثولوجيّات السومريّة والمصريّة ، إلى السرود الدينيّة التوحيديّة ، إنّها نسخة من رافد مختلف ، وبإضافة

العديد من الروافد الجانبيّة الأخرى ، وفي مقدمتها الفلسفة اليونانيّة والزرادشتيّة ، فإنّها تولّد مشتقاتها من الديانات الموسويّة والعيسويّة والمحمديّة .

إنّ الزخم الثقافي المادي والمعنوي الجديد ، الذي اكتسب القدرة على القيام بحملة جديدة عظمى في أوروبا خلال القرن السادس عشر ، يرتكز أساساً إلى ذاك الأصل التاريخي وتلك النسخ المشتقّة منه .

ولهذا ، فلا يمكن إيضاح عصر النهضة والتنوير والإصلاح في أوروبا ، بالاقتصار على الفلسفة الإغريقيّة ـ الرومانيّة وعلومها وفنونها وقوانينها ، بل يستحيل فعل ذلك من دون الاعتماد على الإرث السومري والمصري .

ولا شكّ أنّ لأوروبا مساهماتها ، وبالأصل فقد بدأت تلك الإسهامات تُعطي أُكلَها في مستهلّ القرن السادس عشر ، فسرود العلماء والفلاسفة كانت تتألف من مزيج العلم والفلسفة والدين ، والتي تحدّد ملامح النسخة الجديدة ، فلم تقتصر ما منحته المدنيّة على المدينة والدولة والطبقة والتاجر والمال والسوق فحسب ، بل وقدّمت الفلسفة والدين والعلم والفن أيضاً ، لقد برهنت أوروبا امتلاكها أكثر من غيرها مهارة الانتهال من الثقافة الماديّة والمعنويّة للتاريخ القديم ، في حين عجزت الحضارة الهنديّة والصينيّة عن النجاح في ذلك ، كما بقيت الحضارة الشرق أوسطيّة قاصرةً عن إداء قدرتها على تحقيق حملتها الأخيرة ، ولهذا فيمكن القول بأنّ ما قامت به أوروبا هو ثالث نسخة عظمى في التاريخ الحضاري .

إلا أنّ المدنيّة الرأسماليّة ، قد حاصرت المجتمع بتقنياتها السلطويّة السياسيّة وبالعنف العسكري كدرع منيع ، وغزت جميع ميادين المجتمع الذهنيّة سواء كونيّاً أو وطنيّاً ، وخاصةً محليّاً ، وذلك بالوسائل والمؤسسات الممتدّة من الكهنة الأوائل إلى جميع الجامعات الرسميّة بشتّى مدارسها وأكاديمياتها ، ومن المدارس الابتدائيّة إلى الثكنات ، ومن المعامل إلى مراكز الأسواق التجاريّة ، ومن الإعلام إلى المتاحف وصولاً إلى بقايا الأديان القديمة ، ومن المشافي إلى السجون وحتى المقابر ، لقد بات المجتمع برمّته محبوساً في القفص الحديدي للمدنيّة الرأسماليّة .

6- أثر أيديولوجيا التنوير :

لقد أثّرت أيديولوجيا التنوير بشكل كبير ، حتى باتت بمثابة الدين الكوزموبوليتي (مجتمع أممي) الأرقى ، إذ توجّه نداءاتها لمعتنقي الأديان التي تسبقها ، إنّها قوميّة لدرجة بات التفكير في ميول وطنيّة أو مجتمعيّة لا تعبد الدولة القوميّة شبه مستحيل فيها ، لقد غدا الإنسان المفتقر إلى الدولة القوميّة أشبه بإنسان بلا دين ، إنّ

أيديولوجيا الدولة القوميّة بمثابة أضعف الأديان ، وبالتالي لن يكون القبول بها أو اعتناقها صعباً ، كما الأمر حيال جميع الأديان السابقة ، فهي تتغذّى دائماً من العلمويّة ، وتحوّل نمط حياتها الماديّة إلى ضرب من الشعائر الدينيّة ، في حين تعمل وسائل الثقافة المعنويّة ، وفي صدارتها الأجهزة الإعلاميّة ، على الترويج الدائم لها ، أمّا الحياة السياسيّة والاقتصاديّة ، فهي تحت قبضتها المُحكمة كليّاً ، لقد باتت عالميّةً .

7ـ الرأسماليّة شكل من أشكال السلطة ، وليست اقتصاداً :

لقد غدت القوة والزمرة السياسيّة التي تسيطر على الاقتصاد ذات شأن وتأثير داخل أوروبا في القرن السادس عشر ؛ وصارت نفوذاً سياسيّاً أساسيّاً في هولندا وإنكلترا ، من خلال المصطلحات التالية (الرأسماليّة ، الرأسمالي ، الاقتصاد الرأسمالي) ،

واستخدامها الاقتصاد ليس مؤشراً على أنّها اقتصاديّة ، ومن المستطاع القول : إنّ فرناند بروديل (مؤرّخ فرنسي ، ومن مؤسسي مدرسة الحوليّات الحديثة) هو أول عالم اجتماع انتبه إلى هذه الحقيقة ، ولكنّه عجز عن تحويل فكرته إلى منهج ، بل ورغم إدراكه مدى إفساده لإحدى المسلّمات المشتركة ضمن الفكر الأوروبي برمّته ، إلا أنّه عجز أيضاً عن الترويج لها كفايةً ، وربما بقي قاصراً عن تطوير فكره في هذا المنحى ، إلا أنّه يقول علانيةً (إنّ الرأسماليّة ضدّ السوق ، وهي نهبٌ احتكاريٌّ وقوّةٌ مفروضةٌ على الاقتصاد من الخارج) ، ولمعرفة ما الذي يفرض نفسه من الخارج والمضادّ للسوق ، ولا يكون اقتصاداً ، لابدّ من فحص التطوّر الميداني للفكر النظري ، والبحث فيه ضمن ميادين العلاقات التي يتشعب داخلها ، ومدينة البندقيّة هي استدلال على ذلك ، فثمّة مجموعة من التجّار الكبار فيها في القرن الثالث عشر ، وهي تهيمن على إدارة شؤون المدينة في الوقت ذاته ، وتصارع أندادها ، وتملك أسطولاً بحريّاً ، فهي صاحبة القوّة العسكريّة في المدينة ، علاوةً على أنّها تدافع عن النهضة وتحميها ، وتتسم بإحكام سيطرتها على الاقتصاد والمجتمع ، من هنا ، فمن اليسير التبيان بأنّ كل هذه العلاقات متداخلة مع بعضها البعض ، وإنّ المال يؤدي دور الصمغ اللاصق لها ، وبذلك فأنّ مدينة البندقيّة تقوم بمراقبة الاقتصاد واختلاس قسم مهمّ من فائض القيمة ، عن طريق المجموعة التي تُسمّى بكبار التجّار ، ولهذا الغرض ، فإمّا أنّها تحكم قبضتها على الزمرة السياسيّة بذات نفسها ، أو أنّها تراقبها وتتحكّم بها ، بل وتستخدم قوّة جيشها عندما يستدعي الأمر اللجوء إلى العنف .

وهذه المجموعة ذاتها تتميّز بحراك شامل على وجه التقريب ، والتي يمكن تعريفها على أنّها احتكار التجّار ، الدولة ، الجيش ، البيروقراطيّة ، وهي حامية مجاميع الكنيسة والفنون النافذة ، وتتجاوز حدود الدولة ، وتفرض ذاتها على الاقتصاد كاحتكار خارجي ، رغم أنّها غير معنيّة بالاقتصاد ، وتُحكم نفوذَها على المجتمع بما يتخطّى هيمنة الدولة نفسها ، وعليه فيمكن نعت تلك المجموعة ب(السلطة المكثّفة) ، أو (السلطة) .

8ـ الاقتصاد المثمر في النظام الرأسمالي :

إنّ الاقتصاد في النظام الرأسمالي مثمرٌ ، والذي قد أوجده وجعله مثمراً ، هم الآلاف من شتّى المهنيين ، الفلّاحين ، العمال ، صغار التجّار ، أصحاب الدكاكين والمَتاجر ، والأسواق والأموال والسندات التي تُسرّع من الحراك والتداول ، والأهم من كلّ ذلك ، فإنّ هذا العطاء الاقتصادي يضخّم فائض القيمة ، والذي ينال حصة الأسد من فائض القيمة الضخم ، هم المسيطرون على الاقتصاد بوساطة المال والقوّة السياسيّة والعسكريّة ، ذلك أنّه لا بيع من دون مال ، وإنّ غاب المال توقّف الإنتاج ، ومن دون الجيش والقوّة السياسيّة يحصل احتلال البلد ، فينخفض الإنتاج ، إذن ، فالمحدِّد هنا، إلى جانب المال ومشتقاته ، هو أنّ بعض الشرائح المنظّمة تستمرّ في بسط سيطرتها بشرط التحكّم بالاقتصاد ، في سبيل نهب وسلب فائض القيمة المتعاظم ، ومن المحتمل أنّهم يمثّلون الشرائح التي تكون على علاقة كثيبة مع الفئات السياسيّة والعسكريّة ، والاحتمال الراجح هنا هو أنّ الأمير والملك يقودان نفس مجموعة جامعي فائض القيمة المتعاظم ، ومن المحتمل أنّهم يمثلون الشرائح التي تكون على علاقة وثيقة مع الفئات السياسيّة والعسكريّة ، والاحتمال الراجح هنا هو أنّ الأمير والملك يقودان الجيش ، وبالتالي ، فهما بحاجة ماسة إلى المال ، وهذا ما معناه أنّهما ينتميان إلى نفس مجموعة جامعي فائض القيمة أو أنّهما على علاقة وثيقة بهم ، وفي هذه الأثناء ، فهم يوطّدون العُرى فيما بينهم عن طريق الحركات الفنيّة والفكريّة ، كما أنّ وصفهم في أوروبا بالملوك المهتمين بالحريّة يتوافق مع مصالحهم ، فهم لا يتخلّفون عن مؤازرة و دعم حركات المعارضة داخل البلدان المنافِسة لهم ، ودون أنّ ينشغل واحد منهم بالاقتصاد الحقيقيّ ، إلا أنّهم يفرضون أنفسهم على الاقتصاد من الخارج ، ويسرّعون من سيولة المال ـ القيمة لأجل تضخيم المال ، وينقلون المال إلى الدولة على شكل ديون ، لربما يكونون بذلك شركاء في الدولة مقابل ذلك .

أما العناصر المسماة ب (الرأسماليّة ، الرأسمالي ، الاقتصاد الرأسمالي) ، فهي تراقب الاقتصاد بشكل غير مباشر ، ولا تأخذ مكانها فيه بصورة أساسيّة ، وتقوم

باحتكار السلطة ، حيث أنّها توحّد احتكاراتها الاقتصاديّة مع احتكارات السلطة ، كما أنّها تحارب ، لأنّ قواها تتضاعف داخل البلد عندما تنتصر في الحرب ، وهذا ما معناه مزيداً من فائض القيمة ، أما حين انتصارها في حروبها في الخارج ، فهذا يعني كسبها مستعمَرات جديدة ، وتعزيزها لنفوذها ، وهذا ما يعني النهب الاحتكاري .

9ـ المجموعات التي أدارت العجلة الاقتصاديّة عبر التاريخ :

1")ـ المجموعة الأولى : المرأة هي الصاحب الحقيقي للاقتصاد ، فهي القوّة الاقتصاديّة الأساسيّة على الإطلاق ، فهي ، إلى جانب أنّها الأم المنجبة والمربيّة للأولاد ، لا تزال القوة الأساسيّة المحرّكة لعجلات الاقتصاد في العديد من ميادين الحياة ، وليس فقط داخل المنزل ، نظراً لدورها في الثورة الزراعيّة ، وجمعها الثمار على مدى ملايين السنين ، وقيام اليونانيين الأصليين ، الذين لهم الشرف في إرساء أرضية العلوم ، بإطلاق تسمية (قانون البيت أو قانون المرأة) على الاقتصاد ، إنّما يشير إلى تشخيصهم هذه الحقيقة منذ آلاف السنين .

2")ـ المجموعة الثانية : وتضمّ العبيد والأقنان والعمّال ، والذين طالما استغلّتهم قوى المدنيّة ، وبسطت عليهم رقابتها الصارمة بأساليب مجحفة ، بغرض نهب فائض القيمة كفنّ أوليّ حفظته عن ظهر قلب .

3")ـ المجموعة الثالثة : وتضمّ الحرفيين وصغار التجّار وأصحاب الدكاكين والمتاجر ومالكي الأراضي الصغيرة من المزارعين ؛ والذين هم أكثر تمتّعاً بالحريّة نسبيّاً ، وبإدراج أرباب المهن الحرّة أيضاً إليهم ، كالصنّاع والمعماريين والمهندسين والأطباء .

10ـ الرأسماليّة لاتشكّل اقتصاداً ، بل هي ضدّ الاقتصاد :

لا تشكّل الرأسماليّة اقتصاداً ، وهي ضدّ الاقتصاد وفق المعطيات التالية :

1")ـ تحتلّ معطيات الأزمة الاقتصاديّة مرتبةَ الأولويّة ، إنّ فريق الكهنة (الوضعيين العلمويين) الساعين لبرهنة كون الرأسماليّة نظاماً اقتصاديّاً ، يفهمون قضية الأزمات ويشرحونها على نحوٍ خاطئ ، فثمّة إيضاحٌ واحدٌ فقط للأزمات الاقتصاديّة ، ألا وهو أنّ الرأسماليّة ذات هويّة معادية ومضادة بشدّة للاقتصاد ، ويُصاغ أحياناً تعريفٌ يشير إلى أنّ الأزمات تنبع من الإنتاج الزائد ، فمن جهة ، هناك القسم الأعظم يتضوّر جوعاً ، ومن جهة أخرى ، هناك زيادةٌ في الإنتاج ،

وعن طريق هذا النوع من الأزمات المُبتدعَة قصداً وعمداً ، غالباً ما يبرهن أنّ الرأسماليّة مضادةٌ للاقتصاد ، علّتها في ذلك واضحةٌ للغاية ، وهي ربح الاحتكار ، حيث يتمّ تخصيص حصص للقوى الكادحة ، التي تنتج مقابل ثمن أو أجر بخس يكاد لا يساوي شيئاً ، وعندما لا تكفي تلك الحصص للقوى المشترية ، يظهر ما يسمّى بالأزمات أو بالأصح يتمّ افتعالها ، وحينها ستُقدّم أقدم تكتيكات الحرب على طبق من ذهب ، والتي مفادها (إن كنت تودّ فرض الاستسلام على شعبٍ أو مدينةٍ ما ، فعليك بمحاصرته وتجويعه ! ثمّ اعمل على سدّ رمقه مقابل الاستسلام !

2")- يمكن إدراج الأزمات المعتمدة على العَوز والفاقة أيضاً في نفس الفئة ، أي فرض التخلّي المقصود عن إنتاج السلع ، أو جعل الناس يأملون المدد والعون ليأسهم وعجزهم عن مكافحة الأمراض والآفات ، حيث يستحيل التفكير بمجاعة جديّة أو أمراض جماعيّة جماهيريّة ، فيما لو فُعّلت التقنيات والتجهيزات الموجودة ، لكن ، عندما يكون الهدف حماية وجود النظام السلطوي المهيمن ، فإنّه يتمّ اللجوء إلى هذا النوع من الأزمات المصطنعة ، واستخدام الأمراض والكوارث كورقة رابحة .

3")- الرأسماليّة ليست مضادة للاقتصاد فحسب ، بل و للمجتمع ، إذ يستحيل إنتاج سلعة للبيع بهدف الربح ، إذا ما انقسم الجميع ، أي المجتمع برمّته ، إلى عمال ورأسمالي ، لهذا ينبغي أن يتواجد دائماً المجتمع اللارأسمالي ، والذي يُسمّى المجتمع الديمقراطي ، فالمدنيّة الرأسماليّة كقوّة مهيمنة جديدة ، لا يمكنها أن تتواجد إلا على أرضيّة التضاد مع المجتمع الديمقراطي ، بل وتزداد استعاراً في أوقات الصراع والاشتباك ، ليكون وجودها مرهوناً بالعداء السافر للمجتمع الديمقراطي .

4")- البطالة : الرأسماليّة كنظام مضطرة للاحتفاظ بجيش من العاطلين عن العمل كقوّة احتياطيّة ؛ بهدف الإبقاء على ارتفاع معدل نسبة الربح الوارد من فائض القيمة ، بل هي مرغمة على خلقه إن لم يكن موجوداً ، أي ، إنّ البطالة مرحلة مفتعلة بشكل مقصود ، حيث يتمّ ابتكارها بنمط مصطنع والحفاظ عليها منتعشة ، باعتبار البطالة ثمرة شاذّة للذكاء التحليلي ، وأفظع عمليّة وحشيّة في الحياة الاجتماعيّة .

5")- الرأسماليّة عدوّ التقنيّة : المستوى العلمي والتقني القائم ، قد ارتقى على شاكلة تخوّل أي مجتمع للاستمرار بوجوده بكلّ سهولة على شكل مجتمع ديمقراطي يمثّل النظام السياسي ، وتمكّنه من الجانب الآخر من حلّ مشاكله اقتصاديّاً ؛ إلا أنّ قانون الربح في النظام الرأسمالي ، يعرقل التطبيق النموذجي لهذا المستوى العلمي والتقني في تلبية احتياجات الإنسان ، فلولا قانون الربح ، لكانت الآفاق الموجودة للمنجزات

العلميّة والتقنيّة قادرة على إيجاد شتّى أنواع الحلول اللازمة ، فالرأسماليّة ليست فقط عدوّ الاقتصاد ، بل هي عدوّ العلم والتقنيّة القادرين على تحقيق التطوّر الاقتصاديّ.

6")- الرأسماليّة عدوّ الأخلاق والقيم المعنويّة : فالأخلاق والقيم المعنويّة ، من أهم مبادئ الاقتصاد ، إذ يستحيل على البشريّة تنظيم احتياجاتها الاقتصاديّة إلا بالمبادئ الأخلاقيّة ، وإلا، فستُصاب بالتضخّم ، وإذا لم يوضع حدّ للرأسماليّة ، فالمجتمع البشريّ إما أن يتحوّل إلى مجتمع النمل مثل الصين واليابان ، أو سيتحوّل إلى مجتمع الأُسُود مثل المجتمع الأمريكي .

7")- الرأسماليّة عدوّ المرأة : المرأة هي القوّة الأم الخالقة للاقتصاد ، وحقيقة المرأة المُبعدة من الاقتصاد الموجودة على طول التاريخ الحضاري ، بدأت تعيش أكثر مراحلها إجحافاً وجُوراً في عصر المدنيّة الرأسماليّة ، فقد تُرِكت نسبة ساحقة من الجماهير النسائيّة عاطلة ، فالمرأة إما يد رخيصة ، أو عاطلة عن العمل ، لقد وُضعت في قاع المجتمع على مرّ التاريخ ، لكن ما من نظام مجتمعيّ في المدنيّة استطاع التحكّم باستغلالها بقدر ما هي الرأسماليّة ، فالمرأة باتت في النظام الرأسمالي موضوع اللامساواة واللاحريّة واللاديمقراطيّة ، وتحوّلت إلى صناعة جنسيّة .

8")- البورصة : تبرهن الرأسماليّة مدى عدائها للاقتصاد ، وعدم علاقتها بالاقتصاد الحقيقي ، من خلال إيصالها ما يُسمّى سوق (البورصة ، أسعار الصرف والمبادلة ، والربا) إلى الذروة في مرحلة العولمة الأخيرة ، وبتحويلها إلى ألعوبة نقود ورقيّة ، فهي تتداول مليارات الدولارات (المال العالمي) على الصعيد العالمي خلال ساعات قليلة ، عبر التلاعب بأسعار الصرف والسندات ، والربا والفائدة .

9")- الإنتاج والاستهلاك : لقد أحكمت الرأسماليّة قبضتها على أهم ميدانين في الاقتصاد ، ألا وهما الإنتاج والاستهلاك ، ووضعت ثقلها على السياسات الهادفة فقط إلى جني الربح الأعظم ، دون الاكتراث باحتياجات المجتمعات الحقيقيّة من مأكل وملبس ومسكن ومواصلات ؛ لتخلق بذلك أزمات الإنتاج والاستهلاك المصطنعة ، وتدمّر بُنى المجتمع من الجذور ، وذلك من خلال إيصال التسلّح إلى أبعاد رهيبة وتتصدّرها الأسلحة النوويّة ، واستثمار الطاقة الكربونيّة بهدف الأرباح الهائلة ، وإنتاج النباتات الزراعيّة المعدّلة هرمونيّاً ، والاستثمارات الضخمة الباهظة كتقنية الفضاء ، وخطوط المواصلات البريّة والجويّة والبحريّة ، والاستثمارات التي لا تُحصى في إنتاج نفس السلعة بمئات النسخ إرضاءً لطيش الموضة .

11- موضع الرأسماليّة من الواقع الاجتماعي والحضاري :

لا يمكن بلوغ نتيجة قيّمة بحق الرأسماليّة من حيث موضعة هذا النظام اللااقتصاديّ والبارز بتضادّه مع الاقتصاد،ما لم يتمّ تحليل سياق الممارسات العمليّة والصراعات داخل وفيما بين قوى المدنيّة وأنظمتها من جهة ، وتحليل سياق الممارسات والحروب الناشبة بينها وبين القوى المضادّة للمدنيّة من جهة أخرى ، وسردها بخطوطها العريضة على مرّ التاريخ ، بدءاً من العصر المشاعي النيوليتي ، ومروراً بالعصور المتتالية له ، وانتهاءً بالحضارتين المسيحيّة والإسلاميّة .

1"ـ العصر المشاعي النيوليتي : والذي يُسمّى أيضاً بالعصر الحجري المصقول ، وأحياناً بالعصر الوحشي البدائي ، حيث استُخدمت فيه لغة الإشارة ، و ساده السكن داخل الكهوف والأكواخ العالية الموثوقة بالأوتاد على ضفاف الجداول والأنهار والبحيرات ، وقد تمّ فيه إرساء أرضية ثقافة الاقتصاد في النسق الأمومي المشاعي البدائي ، فقد استُهلكت فيه الغلال المؤمّنة من القنص والقطف بشكل مباشر ، مع الاستفادة من الجلود والألياف ، وكانت المرأة ـ الأم هي السيادة المنسّقة لشؤون الكلان ، فهي ضرب من ضروب الهيمنة الأموميّة الأولى ، فمفهوم الزوج ـ الزوجة لم يتطوّر بعد ، أما المرأة المنجبة فهي معروفة ،في حين شريكها الرجل ، فهو عديم الأهميّة إلى درجة عدم معرفته .

2"ـ العصر النيوليتي : و كما يُسمّى بالنيوليتيّة التي تمثّل في جوهرها ثورة الزراعة والقرية ، وتشهد جبال زاغروس ـ طوروس قفزة عظمى في هذا العصر بسبب مناخها الملائم ، وبيئتها الغنيّة بالغطاء النباتي والحيوانات التي يمكن الاستفادة منها ، فتزداد بذلك فرص التغذية ، وتُحاك المنسوجات ، ويتمّ الانتقال من الكهوف إلى حياة الريف ، فالنباتات والحيوانات تؤدي إلى ثقافة الزراعة وتدجين الحيوانات ، وتبدأ صناعة الأواني الفخّاريّة ، ويحصل العبور إلى مرحلة ثقافيّة وطيدة للغاية ومترابطة ببعضها بعضاً بأواصر كثيفة (ثقافة تل حلف) ، وخصوصاً في المنطقة الممتدّة على شكل هلال يبدأ من حواف جبال شرقي البحر المتوسط إلى جبال زاغروس .

والبؤرة الأم في هذا العصر هي ميزوبوتاميا العليا ، حيث يعيش المجتمع انفجاراً بالاكتشافات الجديدة وباختراع وسائل الإنتاج ، ويتمّ السمو بالمرأة الأم في هذه الثقافة إلى منزلة الإلهة ـ الأم ، ويغلب الظن أنّ دورها محدّد في تكوين المجتمع الجديد الذي تمّ العبور فيه إلى اللغة الرمزيّة .

لقد أصبح الهلال الخصيب البؤرةَ الأم التي انطلقت منها شرارة الثقافة الأولى ، وانتقلت إلى ميزوبوتاميا السفلي ، وادي النيل المصري ، بلاد البلقان ، إيران ، سهوب شمالي البحر الأسود ، وإلى كافة أرجاء أوروبا والصين .

3"- عصر المدنيّة السومريّة : تمثّلُ الثقافةُ المسماة ثقافة (آل عُبيد) ، والتي يُخمّن أنّها برزت في ميزوبوتاميا السفلي ، طوراً جديداً مؤثّراً على صعيد التطوّر الاجتماعي ، حيث تتسم هذه المرحلة بأهميّة تاريخيّة ، سواء من حيث تمهيدها العبور إلى المجتمع الأبوي، أو تسجيل تقدّم ملحوظ فيها لتقنيّات صنع الأواني الفخاريّة ، أو على صعيد انتعاش التجارة فيها ، وابتدائها بأولى عصور الغزوات الاستيطانيّة و الاحتلاليّة ، بالإضافة إلى اعتمادها على ثقافة الهلال الخصيب ، ولا سيما ثقافة تل حلف ، ويمكن تسميتها أيضاً ثقافة أوروك الأولى ، حيث بدأ فيها ظهور المجتمع الأبوي كدلالة على التمهيد للمدنيّة ، وشرعت ثقافة الإلهة - الأم بفقدان أهميتها ، وأُرغمت المرأة على الاعتراف بالتفوق الحاسم للرجل ، كما قطعت الإدارة الهرميّة أشواطاً ملحوظةً في تقدّمها ، ولأوّل مرّة بدأ يظهر تأثير البنية الثلاثيّة (الشامان الشبيه بالكاهن ، الشيخ الخبير بشؤون المجتمع ، الزعيم العسكري القوي بدنيّاً "الرجل") لإدارة المدنيّة الكلاسيكيّة وحكمها في هذه الثقافة ، على شكل مخطوط بدئي ، كما وتحمل الثقافة الدينيّة والسياسيّة والعسكريّة الشرق أوسطيّة الآثار الغابرة لهذه المرحلة .

4"- عصر المدنيّتين البابليّة والآشوريّة : رغم الفوارق الموجودة على صعيد الزمان والمكان بين هاتين المدنيّتين ، إلا أنّ التشابه الثقافي والتزامن اللذين انفردا بمزايا خاصة ، يطغيان عليهما من حيث الظهور على مسرح التاريخ ، والانقطاع كسلطة عن السلالات السومريّة ، ويغلب الظنّ بانحدارهما من الجذور العموريّة - الساميّة ، ومشاطرتهما الحضارة مع السلالة الأكاديّة ، فالشبه اللغوي والثقافي والمصادر المدوَّنة تؤكد ذلك .

*- يُقسم العصر البابلي إلى ثلاثة عصور ، أو ثلاثة عهود :

1")- العصر البابلي الأوّل :مرّ العصر الأخير للسومريين بكلّ بهائه في مدينة نيبور الثقافيّة ، ومن المستطاع التبيان أنّها أوّل مدينة تشهد تلقّي التعليم الأكاديمي ، وبعدما دُمّرت على يد السلالات الأكاديّة كاحتمال راجح ، تأسست وتصاعدت مدينة بابل بالقرب منها ، والتي طغت عليها الثقافة واللغة الأكاديّة ، ليغدو بالإمكان اعتبارها بداية لعصر حضاريّ جديد ، حيث برزت أهمية اللغة الأكاديّة كلغة الحضارة الجديدة ، إذ فرضت وجودها في جميع مناطق المدنيّة كلغة التجارة والسيادة السياسيّة ، ثمّ اتّخذت لنفسها اسم الآراميّة ، لتغدو لغة التفاهم المشترك بين جميع الشعوب الحضاريّة ، وأمّا على الصعيد الحضاري فقد اتّخذت الثقافة الأكاديّة من الثقافة السومريّة ميراثاً لها من حيث المضمون ، أمّا التحوّل الذي أنجزته

ميثولوجيّاً ، فينعكس في سموّ وارتقاء الإله ماردوخ ، وتُعدّ (أنوما أليش) من أهم الملاحم المتبقيّة من ذاك العصر .

ويغلب انعكاس المراحل الحضاريّة المشتركة ، وتقارب الثقافات المتشابهة لتلك المرحلة على تسمية الآلهة التي تمثّل المجتمع كرمز أساسي له ، كما يتمّ تأليه ثقافة الرجل المهيمن بشكل ترميزي ، أي ، بالاعتداء والتعدّي على المرأة ـ الأم واقتصادها من قبل الرجل الماكر الطاغية ، وبينما يخبو نجم الأسماء الأساسيّة للإلهة ـ الأم شيئاً فشيئاً ، والتي هي (ستار) باللغة الآريّة ، و (إينانا) بالسومريّة ، و (كيبالا) بالحثيّة ، و (عشتار) بالساميّة ، و (كالي) بالهنديّة ، ويتمّ السموّ بأسماء الإله ـ الذكر ، وتبدأ الهزيمة النكراء والانحطاط البليغ لشأن المرأة ، والهبوط بها إلى قاع الطوابق الاجتماعيّة ، حتى باتت المرأة مهزومةً ومنحطّةً ومكبوتة النَفَس والصوت وملعونةً ، وفي حالة هامشيّة مميتة ، تجترّ نير العبوديّة في الحضيض السحيق باعتبارها الجنس المعرّض للعبوديّة في كنف الثقافة الماديّة ، والمعنويّة للمدنيّة ،حتى قبل عبوديّة الرجل والعشيرة ، وضمن هذه الأرضيّة الثقافيّة ، تتصاعد ظاهرة الزوجة الخانعة ، ويعلو شأن الرجل ـ الزوج بصلاحياته اللامحدودة .

وهنا ، يُلاحظ أنّ مدينة بابل جذبت الأنظار في التاريخ ببعض مزاياها ، فقبل كلّ شيء تمثّلت كلَّ ثقافة نيبور ، المدينة السومريّة الثقافيّة الأخيرة ، فبرج بابل الشهير ، و رواج التحدّث باثنتين وسبعين لغةً ليس أسطورة خياليّة ، بل هو حقيقةٌ واقعةٌ ، إضافة إلى ذلك ، فإمبراطورها حمورابي الذائع الصيت ، هو ثاني إمبراطور عرفه التاريخ بعد سارغون ، ف " شرائع حمورابي " التي أعلنها باسمه تتميّز بأهميّة رئيسيّة على صعيد تأثيرها وآثارها التي تركت بصماتها على صفحات التاريخ ؛ و إن كانت بالأصل استمراراً للتقاليد السابقة في القوننة والتشريع ، ومن المؤكّد أنّ "قوانين الإله " و "القوانين الحقوقيّة" المعروفة في ثقافة المدنيّة ، تحمل على السواء بصمات تنحدر من عهد حمورابي ، وكما كان الملوك ـ الآلهة المصريون يسمّون أنفسهم (فرعون) ، فالملوك ـ الآلهة البابليّون والآشوريّون كانوا يسمّون أنفسهم غالباً (نمرود) .

بيد أنّ العصر البابلي الأوّل قد انقضى على يد القوى المسماة (الكاسيين) ذوي الأصول الهوريّة و الحثيّة ، فالمجموعات التي أطلق عليها السومريّون اسم الهوريين ، قد أسست صوب الشمال اتحادين سياسيين منيعين ، أحدهما باسم الحثيين ، والثاني باسم الميتانيين الذين أصبحوا ثالث قوّة سياسيّة وثقافيّة عظمى مع

المصريين والحثيين ، وهم يشتركون مع الحثيين في الثقافة واللغة ، وتربطهم ببعضهم بعضاً روابط الدم الوثيقة والزيجات السياسيّة .

2")ـ العصر البابلي الثاني : أما بالنسبة إلى بابل في عهدها الثاني ، فإما أنّها انضوت تحت هيمنة الاتحاد السياسي الذي شكّله الهوريّون ، أو أنّها ظلّت مدينةً عقدت معه ما هو أشبه بالوفاق ، ليتشاطرا الحكم فيها ، ولتستمرّ بوجودها على الأغلب كمركز تجاري وثقافي هو الأكبر في عهدها .

إنّ الثقافة البابليّة أثّرت من الأعماق في الكتب السماويّة الثلاثة ، وتركت العديد من بصماتها عليها ، هذا ويمكن تعريفها كمستودع التجارة والسوق الإقليميّة ومدينة الجامعة ، كما أنّها جسّدت دور المركز الدولي لمدنيّات عصرها ، وباتت كلّ الألاعيب السياسيّة والتجاريّة والاستخباراتيّة تُحاك في بابل .

3")ـ العصر البابلي الثالث : يبدأ هذا العصر مع مسح نينوى من الخريطة بناءً مع التحالف المبرم مع الميديين ، وينتهي مع غزو الإسكندر للمنطقة ، ويتمّ استذكاره عادةً بإمبراطوريّة نبوخذ نصر الذائعة الصيت ، وهي آخر أكبر إمبراطوريّات ميزوبوتاميا التي بدأت ، بعد هذا التاريخ ، بخسران دورها كمركز أمّ رويداً رويداً .

*ـ كما يُقسم عصر آشور إلى ثلاث مراحل بنحوٍ مماثل ، فهي أعتى قوى التاريخ القديم سياسيّاً وعسكريّاً وتجاريّاً ، وتؤدّي دور الحلقة الوسيطة بين المدنيّتين السومريّة و الإغريقيّة ـ الرومانيّة ، ويتمّ استذكارها في المدنيّة بإراقة الدماء والجور والإبداع التجاري ، والاحتفاء بانهيارها كيوم عيدٍ من قِبل جميع شعوب الشرق الأوسط ، بما في ذلك شعبها .

1")ـ العهد الأوّل : هو عهد نماء الأرستقراطيّة التجاريّة ، واللافت أنّ الزمرة التجاريّة والسياسيّة تتجسد بكثافة في نفس الشخصيّة كشكل احتكاري ، حيث أسس الآشوريون المستوطنات التجاريّة في المراكز المتقدّمة الرئيسة ، ولأوّل مرّة عملوا بما يشبه بالامتيازات الأجنبيّة المستقلة ، وامتلكوا شبكات من القوافل الواسعة جداً ، وكانوا المدنيّة الأرقى من حيث الوعي التجاري ، وقد لجؤوا إلى القوّة التعسفيّة لضمان جميع هذه العلاقات الاستراتيجيّة ، فكانت مدينة نينوى تزخر بالغنى والذهب والفضة ، وباتت مراكز أجود الأقمشة وأشهر القصور تجتمع فيها وفي المدن المجاورة لها .

2")ـ العهد الثاني : ويمرّ هذا العهد تحت ظلّ الهيمنة التي بسطها الميتانيّون والبابليّون ، حصيلة التحالف فيما بينهم ، إلا أنّهم استمرّوا في أداء أدوارهم التجاريّة.

3")ـ العهد الثالث : وهو العهد الذي أنشؤوا فيه قوتهم العسكريّة والسياسيّة الأصليّة ، فغدوا القوّة الأكثر هولاً في عهدها ، وفيما عدا الأورارتيين ، لم يتركوا مكاناً إلا واحتلوه وفرضوا عليه الضريبة ، بما في ذلك مصر ، فالآشوريون فرضوا عهداً تجترّ فيه الأقوام والعشائر أشدّ المخاضات ، لدرجة يمكن نعتهم بالمدنيّة الأكثر دمويّةً .

*ـ جاء دمار آشور وانهيارها على يد ذوي الأصول الهوريّة ، أما الهزيمة الساحقة النهائيّة التي لحقت بها ، فكانت حصيلة التحالف بين الكونفدراليّة الميديّة ودولة مدينة بابل ، بعد دبلوماسيّة خفيّة ، زاولتها بابل على المدى الطويل ، وبعد الانشغال الدؤوب للرهبان الميديين الذين تمّت تسميتهم بالماغيين ، ليبدأ بذلك عهد الميديين والعصر البابلي الثالث في المنطقة .

النتيجة الأهم التي يمكن استخلاصها من الواقع العملي للمدنيّة الآشوريّة ، هي تداخل الاحتكارين التجاري والسياسي ، واهتمامهما بالحروب ، إذ تشكّل آشور المرحلة الأهمّ لهذين الاحتكارين في التاريخ الحضاري ، فالحلقة المركزيّة الأولى الواصلة بين المدنيّات المصريّة والصينيّة والهنديّة ـ قبل الإمبراطوريّة البرسيّة ـ هي الاحتكارات التجاريّة الآشوريّة ، لقد خلقوا عالماً تجاريّاً قائماً بذاته ، ومرةً خرى يتبدأ

أنّ الاحتكار التجاري ليس اقتصاداً ، بل يُفرض على الاقتصاد من الخارج بنظام إرهابيّ يندر وجود نظير له ، لينهب الثروات التي جمعتها و أوجدتها الشعوب والقبائل بشقّ الأنفس وبالكدح المرير.

5"ـ المدنيّات المصريّة ، الهنديّة ، الصينيّة ، الحثيّة والفينيقيّة :

ـ قدّمت مصر مساهماتها في الثقافة والحضارة الأوروبيّة ، بقدر تأثيرها في الثقافة الإغريقيّة ـ الرومانيّة ، في حين بقيت بالنسبة إلى أفريقيا كثقافة شبه غائبة ، وهي لم تتدخّل في التجارة أبداً ، كما جرّدت نفسها من الشرق الأوسط ، وربما كانت من أولى أمثلة الاشتراكيّة المطروحة بيد الدولة ، لقد انخرطت مصر كليّاً ، والهند والصين جزئيّاً في حضارة العصور الوسطى عن طريق الشرق الأوسط ، وأدّت الديانة الإسلاميّة دوراً أساسيّاً في صبّها جميعاً داخل حوضها ، ومن ثمّ تقديمها إلى أوروبا .

ـ أمّا الحثيون ، فقد نشروا الحضارة في بلاد الأناضول ، بالتحالف مع الهوريين ـ الميتانيين ، فمن خلال بسط نفوذهم على سواحل إيجة ، قدّموا مساهماتهم في إنجاز التطوّر الحضاري الجديد داخل شبه الجزيرة اليونانيّة ، وقد سدّوا الطريق أمام

توسع مصر عن طريق سورية ، وأثروا أيضاً في عرقلة توسّع آشور ومن قبلها بابل .

ـ أما تجارة المناطق الشاسعة التي عجزت مصر عن إنجازها ، فقد أنجزها الفينيقيون الآهلون في شرقي البحر المتوسط ، حيث أسسوا أولى المستوطنات التجاريّة المحيطة بأطراف البحر المتوسط ، ونشروا الثقافتين الشرق أوسطيّة والمصريّة في أوروبا ، فضلاً عن أنّ فنونهم في الأبجديّة وصناعة السفن مؤثّرة على الصعيد الحضاري ، فهم أوّل من علّم اليونانيين حروف الأبجديّة ، وهم أوّل من أسس الموانئ ، إلى جانب دورهم المهم في نقل الثقافة المعنويّة .

ـ أمّا تأثيرات المملكة الإسرائيليّة ، فكانت في إنتاج التقاليد العبريّة للأديان التوحيديّة فبينما ارتقى التجّار اليهود في الحقل المالي المادي من هذه التقاليد غالباً ، فقد تواجد

الأنبياء والكتّاب والمتنورين الواعين في حقلها المعنوي ، أمّا طغيان تأثيرهم في كلا الحقلين ، فقد ترك بصماته الغائرة في تاريخ الحضارة العالميّة .

6"ـ العصر الميدي ـ البرسي :

إنّ من أهم المزايا المعروفة عن الميديين ، بأنّهم قومٌ ذو أصول هوريّة ، ويقطنون جبال زاغروس ، ولهم علاقات مع الفرس ، وقد كوّنوا فرعاً على شكل عشائر آريّة ، وقد تميّزوا بثقافة المقاومة تحت نير القمع الشديد للآشوريين ، وثمّة رهبانهم المسمّون (الماغيين) ، الذين كانوا معلّمين ومدربين ومنظِّمين أساسيين ، بحيث يمكن القول بأنّهم أدّوا دوراً بارزاً في شؤون الإدارة مدّةً زمنيّةً طويلةً ، ومن المؤكّد بأنّهم أسسوا اتحاداً كونفدراليّاً ، وعاشوا في منطقة ميديا التي تشمل غربي إيران اليوم ، وقد شهدوا علاقات تجاذب وتصادم مع الإسكيتيين الوافدين من بلاد القفقاس ، وبتغلبهم على الآشوريين ازدادت شهرتهم ، وفُتحت الطريق أمامهم ، ومن المعلوم بأنّهم هزموا الفرغيين ، وفي هذه الأثناء ظهر زرادشت العلّامة المتمرّس ، المقتدر من بين الرهبان الماغيين ، ليؤسس ديانةً يطغى عليها الطابع الأخلاقي ، إنّها الزرادشتيّة التي هي ليست ديناً خالصاً ، ولا فلسفةً خالصةً ، وبالإضافة إلى تميّزها عن التقاليد الإبراهيميّة ، إلا أنّ التأثيرات المتبادلة بينهما كثيفةٌ بينهما ، وقد تبلّور تأثير الزرادشتيّة على وجه الخصوص في فترة قيام الإمبراطور نبوخذ نصر بأسر بني إسرائيل ونقلهم إلى بابل ، وتنظر الحضارة اليونانيّة إلى الميديين بأنّهم أكثر رُقيّاً من البرسيين الذين تسنّموا رأس الهرم السياسي الميدي نتيجة خيانة داخليّة ، لهذا ، فالبرسيّون والميديّون هم عنصران مشتركان مؤسسان للإمبراطوريّة البرسيّة ـ الميديّة ، وهم قد وطّدوا أوسع نطاقات الاتحاد السياسي

لهذه الإمبراطوريّة خلال مدّة تصل إلى ثلاثة قرون لتمتدّ من مصر إلى أعماق بلاد الهند ، ومن حدود الصين إلى شبه الجزيرة اليونانيّة ، وقسّموها إلى اثنتين وعشرين مقاطعةً ، ليؤسسوا نوعاً من شبه الدولة ، أما مساهماتهم في الحضارة ، فتجسدت في البيروقراطيّة ونظام الطرقات والبريد الجيد ، وفي بناء أعتى جيش في عهدهم ، فضلاً عن إيلائهم الأهميّة للتقاليد الأخلاقيّة ، وقد انتهلت الحضارة اليونانيّة العديد من عناصرها الثقافيّة من الميديين والبرسيين .

7"ـ الثقافة والحضارة الإغريقيّة ـ الرومانيّة :

تكوّنت الحلقة الإغريقيّة ـ الرومانيّة من المدنيّة في الأراضي الأوروبيّة ، ولكنّها استقت كلّ شيء يخصّها من إرثها الذي ترتبط به ، إذ لم يتشكّل أيّ جديد جادّ كثقافة ماديّة ومعنويّة بعد القرن السادس عشر ، وكما لم تتكوّن أيّةُ متقطعات ، أما الانطلاقة الفلسفيّة التي يمكن اعتبارها تحديثاً ، فيستحيل التفكير فيها بمعزل عن الثقافة المستقاة من البابليين ، المصريين ، الحثيين ، الأورارتيين ، الميديين ، البرسيين ، فحتى أفلاطون يعترف كيف طاف الحكماء اليونانيّون وجابوا مراكز الحكمة الشرقيّة لسنين طويلة .

في حين تتجسد خصوصيّة بارزة في الثقافة الإغريقيّة ـ الرومانيّة في معايشتها نظم الدولة ، كالمَلكيّة والجمهوريّة والديمقراطيّة و الإمبراطوريّة على التوالي وبالتداخل ، فبينما كانت الديمقراطيّة والمَلكيّات متداخلة في البداية ، فقد تداخلت الجمهوريّة والإمبراطوريّة في مراحلها الأخيرة ، لتكتسب الإمبراطوريّة أهميتها كنمط تكويني أخير قبل الانهيار ، لقد شكّلت ما هو أقرب إلى النظام الثقافي والحضاري الأخير والأشمل للنظام العبودي ، إنّ هذه الخاصيّة مهمّة ،فإمّا أن تنهار أو تتحوّل ، علماً أنّ الإمبراطوريّة الرومانيّة انهارت فتحوّلت ، لقد دخلت المدنيّة الإغريقيّة ـ الرومانيّة مرحلة أزمة غائرة ، بعد أن عاشت أكثر مراحلها نضوجاً ، وهي تمرّ بإحدى فترات التاريخ الطويل ، ولعلّ أهم أسباب تلك الأزمة تتلخّص في النقاط :

الشروط المناخيّة ، الإفراط في الإنتاج ، الصراعات الداخليّة والخارجيّة ، الهجرات الداخليّة والخارجيّة ، أنماط الإنتاج المعطاء ، النظام (الفلسفة) ، التنظيمات الأكثر رُقيّاً على الصعيد التحليلي في المجالات العسكريّة والسياسيّة والأيديولوجيّة .

8"ـ الحضارة المسيحيّة والإسلاميّة :

يمكن تفسير الإسلام والمسيحيّة بأنّهما المرحلة الثانية من التاريخ الحضاري ، لقد كانت الأزمة التي شهدتها الإمبراطوريّة الرومانيّة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين أزمةً حضاريّةً بوجه عام ، فخلال هذين القرنين اللذين ينعتهما

المؤرّخون ب (عصر الظلمات) ، يتسارع الانحلال العام للحضارة العبوديّة المعمّرة ما يقارب أربعة آلاف سنة ، فالبشريّة التي تئنّ تحت نِير عبودية مجتمع المدنيّة ، بحاجة ماسة إلى الخلاص ، وإلى وسائله البنيويّة الذهنيّة والماديّة ، فيدور البحث عن الهدف والوسيلة في كلّ الأرجاء ، وتسود حالة نفسيّة أشبه بمن هو على وشك الاستيقاظ من كابوس مزعج .

ومن هنا ، فولادة المسيحيّة والمانويّة والإسلاميّة أمر مفهوم ، باعتبارها ملائمة لروح تلك المرحلة ، التي يفرض فيها موضوع التركيز الذهني والميول العقائديّة نفسه من الأعماق .

ومن الضروري ، لدى تفسير الإسلام والمسيحيّة ، الاستيعاب جيداً أنّهما حركتان سياسيتان كلّياً ، ومكسوتان بالغطاء الديني .

فالحركة العيسويّة ، يمكن تقييمها كحركة اشتراكيّة بدائيّة ، فهي بكلّ تأكيد ، كانت في بداياتها حركة الفقراء الفارّين ، وهي الحركة الأخيرة للشخصيّة المسماة (عيسى) ، ولمسيرته في فتح القدس ، إنّه كان يطمح إلى المَلكيّة الجديدة : مملكة الفقراء ، وتتجمهر الحركةُ بعد حِراك الحواريين الاثني عشر ، وبالأخص بعد تشكّل أولى التجمّعات ومخطوطات الإنجيل .

فالقديس بولس وبعض الحواريين ، كانوا نشطاء جدّاً ، حيث يتابعون روما والإمبراطوريّة الساسانيّة ، وينخرط فيها شعبان أو ثلاثة شعوب أساسيّة بشكل جماهيري : الإغريق في دواخل وغربي الأناضول ، الآشوريون في الشرق ضمن المقاطعات الساسانيّة ، والأرمن في شمال شرقي الأناضول ، والمثقّفون المتنورون اليهود فعّالون للغاية ، حيث يهزّون عرش روما والإمبراطوريّة الساسانيّة من ركائزها الاجتماعيّة ، ليصبحوا حركةً سياسيّةً بكلّ معنى الكلمة ، أما انفصال بيزنطة (القسطنطينيّة) على شكل روما الشرقيّة ، فيأتي بعد تصيير المسيحيّة ديناً رسميّاً ، فتاريخ روما الشرقيّة والغربيّة معلوم ، ويبدو أنّ هذه المرحلة تشقّ الطريق أمام مداولات ـ كانت ظاهريّاً لاهوتيّة ومضموناً سياسيّة ـ وسجالات وانفصالات كبرى بين الحكّام المسيحيين ، ولكن بتدفق السياسة والاقتصاد بغزارة إلى أوروبا من خلف قناع الأيديولوجيا ، تخرج المسيحيّة من كونها ديناً لتصير مدنيّةً ، وهكذا تنتقل أوروبا كليّاً إلى المدنيّة لأول مرة في تاريخها وبغطاء ديني ، ومع انتقال المسيحيّة إلى شمال وشمال شرقي أوروبا في القرن العاشر الميلادي تُكمِل المسيحيّة وظيفتها التاريخيّة الأولى بشكل حقيقي .

أمّا الحضارة الإسلاميّة ، فقد بدأت أيضاً استناداً إلى تقاليد مشابهة ، فمدينة مكة تشكّل بالأساس نقطة تقاطع الطرق التجاريّة الرئيسيّة بين البحر الأحمر ـ الخليج واليمن والحبشة ـ الشام ، وكانت الإدارة الهرميّة الارستقراطيّة لقبيلة قريش العربيّة قد تشكّلت ، وقريش هي قبيلة وثنيّة وتجاريّة تماماً ، وكان رأس المال قد تكّون إلى حدّ ما ، وإلى جانب اليهوديّة والزرادشتيّة والمسيحيّة ، ثمّة العديد من العقائد المنتعشة والمنتشرة آنذاك .

لقد تمخّض زواج سيدنا محمّد من خديجة التاجرة عن وضع جديد ، لأنّ الاتحاد فيما بينهما هو، بكلّ تأكيد ،تطلّع نواتيّ إلى السلطة ، كما راجت مقولة (آخر الأنبياء) ، وكان أتباع سيدنا محمّد كثراً، بل ظهر من بينهم النساء أيضاً ، وأمّا ارستقراطية قريش ، فكانت عاجزةً عن التدوّل بسبب تقاليدها الوثنيّة الرجعيّة ، كما كان اليهود والمسيحيّون منبوذين وبلا شأن ، وكان سيدنا محمّد يعرف أمر العقائد والطرائق السائدة آنذاك ، أي ، كان يدرك بأنّه لن يستطيع تحقيق أهدافه في تأسيس اتحاد سياسي في البلاد العربيّة ، ولكنّه يغدو مرشّحاً لهذا الدور بتحفيز من خديجة ، فيأتيه أوّل وحي يُنْبئه بأنّه نبيّ في عام (610م) ، أي ، عهد احتدام الصراع البيزنطي ـ الساساني ، والنبوة منذ بداياتها تعني القيادة السياسيّة ، وما من خيار آخر أصلاً ، من هنا ، فكلّ رسائله مخصوصة برجالات الدولة ، إنّها انطلاقة الإمبراطوريّة المتنامية حديثاً في الشرق الأوسط ، ومن خلال الانفتاح على الشعوب سائرةً بقيادة العرب ، يتمّ التغلّب على ضيق الأفق في الأيديولوجيّة اليهوديّة المُستحدثة إلى أبعد الحدود ، ويتمّ ترميز معالم نمط الحياة الجديدة بالعبادات ، لتعمّ الجهات الأربع من المعمورة ، باستراتيجيّة وتكتيك قويمين ، لذا بالإمكان نعت الإسلام بأنّه أوّل حركة أمميّة شاملة ، ليتطوّر قُدُماً تاركاً بصماته على صفحات التاريخ ، كحركة حضاريّة سياسيّة مُثلى ، من حيث أيديولوجيّتها ومنهجها السياسي وقيادتها واستراتيجيتها وتكتيكها .

والجانب المثير في قصة الإسلام ، هو تداخله مع السلطة تزامناً مع ولادته وتوسّعه ، بل ولادته كسلطة ، ويمكن إيضاح قصة هذه الحركة المتّجهة سريعاً وباكراً نحو السلطة من خلال :

1")ـ فراغ السلطة في أعماق الجزيرة العربيّة مدّة طويلةً .

2")ـ الفوضى المجتمعيّة (صراع القبائل) .

3")ـ اتّسام الإمبراطوريتين البيزنطيّة والساسانيّة بخصائص المرحلة الأولى من الحضارة .

4")- المزايا الشخصيّة لسيدنا محمّد .

*- إنّ الإسلام منفتح أكثر على العلمانيّة نسبةً إلى المسيحيّة ، لكنّ إعلانه الحرب الجذريّة على نمط الحياة القديمة ، قد أسفر عن نتائج سلبيّة وخيمة وبذريعة العقائد القديمة ، فإمّا أنّه قُضي على الثقافات التاريخيّة للشعوب (بما فيها المسيحيّة) ، أو أنّها صُهرت كما حال الزرادشتيّة والمانويّة ، وواضح أنّ الحياة الجديدة التي جلبتها معها قد شقّت الطريق أمام الأرستقراطيّة الإقطاعيّة ، فقد حلّت ثنائيّة السلطان - ظلّ الله محلّ الملك - الإله لتغدو السلطنات الاستبداديّة أمراً لا مفرّ منه في نهاية المآل ، كما يفتقر الإسلام كدين إلى سدّ مهارة الاستبداد .

12- وطأة المرحلة الثانية من التاريخ الحضاري :

إنّ كلا الدينين ، المسيحي والإسلامي (والدين اليهودي أيضاً) ، ورغم انضمامهما إلى النهر الأم للمدنيّة كمرحلة ثانية ، لم يستطيعا من حيث الزمان والمكان إيجاد الحلول ، سواءٌ للمشاكل القائمة بين الزمر الاحتكاريّة الحاكمة ، أو لقضايا الحريّة والعدالة التي تتطلّع إليها قوى المجتمع الديمقراطي المنبوذة من قِبَل المدنيّة ، بل ، على النقيض ، فقد زادت المرحلة الثانية من وطأة قضايا الحرب والعدالة والحريّة من حيث النقاط التالية :

1")- لقد أُضيفت بؤر جديدة إلى بؤر السلطة الاحتكاريّة ، وبالمقابل ، لم تُسجّل الحِرف اليدويّة والزراعيّة تطوّراً نوعيّاً ملحوظاً ، وتكاثرت الأطراف المتصارعة على فائض الإنتاج ، ليصبح الأمراء عناصر احتكاريّة بقدر السلاطين ، وتضاعفت السلالات ، وكثُر الطامعون بالحصص بنسبة كبيرة مقارنة مع المراحل السابقة ، وراحوا يضرمون نار الحرب على الدوام ، وقد جرت الحروب الإقطاعيّة في أوروبا وروسيا بحدّة عالية ، كما ضاعف المونارشيون (المونارشيّة : شكل من أشكال الحكم ، يكون فيه الشخص أو الملك رئيساً للدولة مدى الحياة ، أو حتى التنازل عن العرش) من نسبة البيروقراطيّة (البيروقراطيّة : مفهوم يشير إلى تطبيق القوانين بالقوّة في المجتمعات المنظّمة) ليُزيدوا من وطأة مشاكل الدخل والواردات .

2")- عجز معتنقو كلا الدينين الجديدين عن تحقيق آمالهم في الحريّة والعدالة ضمنهما .

3")- قُضي على الثقافة القديمة باسم "ظلمات العصور الوسطى " ، بدلاً من تطوير الثقافة المعنويّة ، وباتت الإرادة وكأنّها مغيّبة ، فتحوّل الناس إلى مخلوقات الظلّ .

4")- خلّفت حروبها في نشر سلطاتهم تحت شعار " إله واحد في السماء ، وخليفة واحدة في الأرض " حروبَ العصور الأولى وراءها من حيث حدّتها التدميريّة .

13- المسيحيّة والإسلام ليسا حلّاً :

لا المسيحيّة ولا الإسلام استطاعا أن يكونا حلّاً للأزمة النهائيّة المتعمّقة ، مع انهيار الإمبراطوريّة الرومانيّة في العصر العبودي ، والنظام الإقطاعي ، أو ما يُسمّى ب "حضارة العصور الوسطى " بموجب البنود التالية :

1")- خسر الإغريق والأرمن والآشوريّون ، الذين يُعتبرون من أولى الأقوام المعتنقة المسيحيّة ، قسماً كبيراً من مناحيهم التاريخيّة والثقافيّة مع الفتوحات الإسلاميّة ، أمّا القومان اللذان خرجا من هذه المرحلة بمكاسب كاسحة ، وأنجزا توسّعات عظمى ، فهما الأتراك والعرب ، في حين بالكاد استطاع الكرد والفرس الحفاظ على وجودهم ، ومقابل ذلك ، كان الروس القوم الأكثر ظفراً بفضل المسيحيّة ، أما الطرف المغلوب مقابل الروس ، فكان الأتراك والتتار والمغول ، بل حتى الصينيين .

2")- وازنت القبائل الأوروبيّة بين منجزاتها ومكاسبها عن طريق المسيحيّة ، فبينما شهدت تطوّرات نسبيّة في هوياتها القوميّة بسبب العقائد المشتركة ، فقد أثّرت في خسران أرستقراطيّة الرهبان ، ومن بعدها الإقطاعيّات جزءاً مهمّاً من انتعاشها الثقافي القديم .

3")- لم يستطع أهالي أفريقيا وأمريكا وأستراليا صون ثقافاتهم الأم ، ففقدوا هوياتهم ردحاً طويلاً من الزمن بشكل كلّي مقابل المسيحيّة ، وقسميّاً مقابل الإسلام ، كما كانت الثقافة الهنديّة طرفاً خاسراً ، في حين عجزت الصين عن التجرّؤ على التوسّع إزاء الأديان .

14- وضع أوروبا في مرحلة ولادة الرأسماليّة :

اكتسب وضع أوروبا ماهية استراتيجيّة ، انطلاقاً من كون حضارة العصور الوسطى قد أدّت إلى نتائج عمّقت الأزمة بدلاً من حلّها ، ومع حلول القرن الخامس عشر ، كانت المسيحيّة قد أتمّت انتشارها في عموم أوروبا ، وتمرّ بمرحلتها المَلكيّة والإقطاعيّة المقدّسة ، وتزعم الإمبراطوريّة الرومانيّة ـ الجرمانيّة أنّها امتداد لميراث روما ، فسارت المدن الإيطاليّة على درب الرسملة من جهة ، وتزعّمت حركة النهضة من جهة أخرى ، وأقدمت على المنافسة التجاريّة فيما بينها ،

وتزعمت حركة التمدّن من أجل أوروبا خلال القرنين الماضيين ، ونشرت الرأسماليّة التجاريّة في أوروبا لتهيئ بذلك فرصة استراتيجيّة لها ، وليُعتبر ما قامت به بالنسبة إلى أوروبا مسألة وجود أو عدم ، وذلك لأنّ المسيحيّة والإسلام البارزين كقوتين تتطلّعان إلى حلّ الأزمة لإخراج البشريّة من ظلمات انهيار روما ، وإيصالها إلى الخلاص والنور ، قد ضاعفا من عمق الأزمة في داخلهما ، وفي مواجهة بعضهما بعضاً على السواء ، وأديا بالتالي إلى عودة ظهور مشاكل التحرر والتنوير ، من هنا ، وبعد أن احتضنت أوروبا القوتين الممثّلتين للمرحلة الحضاريّة الثانية ، فحصرت بذلك الأزمة في ثناياها ، وكان عليها حلّ هذه الأزمة أو السقوط بها إلى الحضيض ، ولا يمكن أن تكون الرأسماليّة هي الحل ، لأنّ تواجدها بالذات كاحتكار حربيّ وسياسيّ واقتصادي ،هو المؤثّر الأساسي للأزمة خلال التاريخ الحضاري برمّته .

الفهرس :

1- المقدّمة

2- تفسير التصوّرات والانطباعات الطفوليّة

3- تركيا أولى أمثلة الحداثة الرأسماليّة المتحوّلة إلى دولة قوميّة

4- تفسير ماركس وأنجلز ل الاشتراكيّة العلميّة

5- تأثير الاحتكار الرأسمالي على الثورة الفكريّة في أوروبا في القرن السادس عشر

6- أثر أيديولوجيا التنوير

7- الرأسماليّة شكل من أشكال السلطة وليست اقتصاداً

8- الاقتصاد المثمر في النظام الرأسمالي

9- المجموعات التي أدارت العجلة الاقتصاديّة عبر التاريخ

10- الرأسماليّة لا تشكّل اقتصاداً بل هي ضدّ الاقتصاد

11- موضع الرأسماليّة من الواقع الاجتماعي والحضاري

12- وطأة المرحلة الثانية من التاريخ الحضاري

13- المسيحيّة والإسلام ليسا حلّاً

14- وضع أوروبا في مرحلة ولادة الرأسماليّة